ايلاف
حارسة السبخة

رسوم وتصميم
أحلام جمال

تأليف
أطفال حي السيدة المنوبية وحي هلال

تأطير التأليف
منتصر العميري

تم تطوير هذه القصة في إطار المبادرة الإقليمية "قصص بالألوان: الأطفال يروون قصصا عن التغير المناخي" ضمن أنشطة مجموعة الأمن الإنساني في إطار برنامج آفاق مدنية الإقليمي بالتعاون مع جمعية رائدات تونسيات للمساواة و فوج السيدة المنوبية للكشافة التونسية والمعهد العربي لحقوق الانسان.

Co-funded by the European Union

شكر وتقدير

نود أن نسلّط الضوء على رواة القصص الشجعان والمبدعين من الأطفال والمراهقين الذين شاركوا في نسج هذه القصة الغنية بالمعاني والدروس حول التغير المناخي وحماية سبخة السيجومي والعدالة البيئية. لقد ألهمونا بخيالهم، وذكّرونا بأن صوت الطفل قادر على إحداث الفرق:

- مرام قرامي
- تسنيم الطيب
- نور الطيب
- شيماء الطيب
- صابرين العمدوني
- محمد العمدوني
- مريم الضاوي
- حسن الحديجي
- ابي بن ساسي
- يحيى بن ساسي
- مايا الزيدي
- محمد سلمان الزيدي
- محمد ريان العوني
- اسكندر عجالة
- ابراهيم ماجري
- آزر ماجري

وتحية خاصة إلى السيد منتصر العميري، الحكواتي، الذي تميّز بتيسير ورشات الكتابة بطريقة تفاعلية، حوّل من خلالها أفكار الأطفال والمراهقين من حي السيدة المنوبية وحي هلال إلى قصة نابضة بالحياة والخيال.

كما نشكر الناشطات البيئيات الأربعة اللاتي شاركن في تشكيل معالم هذه القصة من خلال مساهماتهن القيّمة في الورشات والنقاشات: السيدة ايمان العبيدي والسيدة نبيلة خليفي والسيدة سمية العباسي والسيدة سيرين غريسي. لقد أضفن من خبرتهن وشغفهن ما جعل الرسائل البيئية في القصة أكثر عمقًا وواقعية. ولا يفوتنا أن نتوجه بجزيل الشكر إلى السيدة عبير الفيّالي، التي قامت بمراجعة النسخة العربية من القصة بدقة واحتراف، مما ساهم في إخراجها بشكل لغوي راقٍ ومتقن.

إن سرد القصص ليس مجرّد فن، بل أداة لتمكين المجتمعات، مواجهة التحديات، وتخيّل مستقبل مختلف أفضل للجميع.

كان يا مكان في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، كان هناك فتاة صغيرة اسمها إيلاف. كانت فتاة جميلة جمالها يأسر الأنظار، شعرها الأسود الطويل ينسدل على كتفيها في ضفيرتين من كل جانب، عيناها العسليتان كانتا تلمعان كبريق الجواهر تحت أشعة الشمس، أما ابتسامتها كانت كالشمس التي تشرق في الصباح، تضيء كل شيء حولها بدفء وسعادة. كانت تقطن بين حي السيدة المنوبية وحي هلال، قريبة من سبخة السيجومي. كانت تعيش مع أسرة صغيرة مكونة من أب وأم وأخ أصغر منها. كانت إيلاف في العاشرة من عمرها، تدرس في المدرسة في السنة خامسة. كانت تداوم كل يوم في مدرستها ، محافظة على دروسها، مهتمة بلباسها وتحب دراستها كثيرا، فقد كان لديها حب الاكتشاف والمغامرة، فقد كانت كثيرة الأسئلة والاستفسار، فقد كان والديها لا يجدان الإجابة لأسئلتها في بعض الأحيان، فيشعران أن ابنتهما سابقة لسنها.

كانت عائلة ايلاف عائلة بسيطة الحال، إمكانياتهم المادية بسيطة، فقد كانوا محدودي الدخل وبالرغم من ذلك كان الأب يشتغل يوميا لتوفير لقمة عيش عائلته، كما كانت زوجته تساعده أيضا على توفير ظروف معيشية بسيطة، فهما لم يستسلما لظروفهم الاجتماعية القاسية. وقد كانت إيلاف النقطة المضيئة في حياتهم حيث كانا يرغبان في رؤيتها تحقق أحلامها وطموحاتها وتصل إلى مركز مرموق في حياتها.

كانت ايلاف متفوقة كثيرا في دراستها. فقد كانت مجتهدة في القسم. فكل سؤال تسأله المعلمة إلا وكانت إيلاف لديها الإجابة عنه. وفي يوم من الأيام، طلبت معلمة الإيقاظ العلمي أن ينقسموا إلى مجموعات لينجزوا بحثا على مميزات وإشكاليات سبخة السيجومي، تلك السبخة التي يمرون منها يوميا، وهي منطقة معروفة لأهالي السيدة وحي هلال صغارا و كبارا.

ولكن للأسف، لم يكن لدى إيلاف صديق أو صديقة لتشاركها في العمل على البحث.
فقررت أنها ستنجز البحث بنفسها وتثبت لهم انها قادرة على إنجازه بمفردها. خرج التلاميذ من المدرسة ومن ضمنهم إيلاف متجهة نحو منزلها.

بينما هي في طريق العودة، فكرت في نفسها قائلة:" لما لا أنجز بحثا ميدانيا وأتميز به على أصدقائي بما أن بحثهم سيقتصر على المعلومات الموجودة في الانترنت ولن يتعلموا منها شيئا؟ أما أنا فسيكون بحثي ميدانيا ملموسا، سأكتشف السبخة وما يوجد بها بنفسي."
وبما أن منزل إيلاف بين السيدة وحي هلال وقريب كثيرا من السبخة، انتهزت ايلاف الفرصة وذهبت مباشرة نحو السبخة لإنجاز بحثها الميداني.

وضعت محفظتها على الشاطئ وبدأت تبحث في أطراف السبخة وقالت في نفسها: "لو أستطيع أن اغوص وأكتشف الأسرار الكامنة تحت ماء السبخة!".
وبينما هي غارقة في أفكارها حول السبخة،

فجأة شعرت إيلاف بأنَها تغرق وبدأ الطين
يسحبها للأسفل بكامل جسدها. فانتابها الرعب
الشديد وشعرت بأنها على وشك الهلاك.
وبينما كانت غارقة في أفكارها وخوفها،
شعرت فجأة بشيء غريب... لقد أصبحت
تستطيع التنفّس تحت الماء!
نظرت إلى جسدها بدهشة، فوجدت أن لديها
ذيلاً يشبه ذيل السمكة. لقد تحوّلت إلى
حورية بحر!
بدأت تبكي وتصرخ من الخوف، ظنّت أنها
ستبقى بهذا الشكل إلى الأبد.

وفي لحظة مؤثرة، ظهر أمام عينيها طيف عائلتها، وتملّكها
حزن عميق. فكّرت في عائلتها وضحكاتهم، وتخيلت كم
سيقلقون عليها... وكيف سيشعرون بفقدانها.
لكن سرعان ما تلاشى الخوف وبدأ شعور جديد يتحرك
في داخلها: الدهشة. مسحت دموعها وأخذت نفسًا عميقًا.
ربما... كانت هذه مغامرة كُتبت لها.
وبينما الشجاعة تنمو في قلبها، بدأت إيلاف تسبح، تنزلق
بين مياه السبخة الغامضة — تبحث عن إجابات، عن طريق
للعودة، أو ربما... عن شيء قُدر لها أن تكتشفه منذ البداية.

وبينما هي منغمسة في اكتشاف السبخة، رأت سمكة جميلة وصغيرة لكنها مخنوقة بكيس أسود، تسعل وهي خائفة. فاقتربت منها لتساعدها، فخافت منها السمكة وهربت، فحاولت إيلاف ملاحقتها حتى وصلتا أمام سلم طويل وأمامه ثلاثة أبواب.

دخلت السمكة من الباب الكبير. وقفت إيلاف مبهورة بما تشاهده: سلم طويل وفي آخره ثلاثة أبواب كبيرة ذات العضائد المبنية من الحجر المنحوت. وعندما فتحت السمكة الباب، رأت إيلاف ساحة مضيئة، يغمرها نور ناعم ومليئة بمخلوقات غريبة، جميعها تتحدث بهدوء معًا.

همست إيلاف: "علىّ أن أتبعها، إن لم أساعدها، فقد تموت بسبب كيس البلاستيك الذي ابتلعته."

دخلت إيلاف من نفس الباب وهي تبحث عن السمكة، فوجدت أمامها ملكا عملاقا وعظيما يرتدي عباءة من الطحالب تعكس الضوء بألوان خضراء وزرقاء، ويضع تاجا كأنه تحفة فنية مرصعة بالأصداف التي تلمع كالنجوم. وكانت يده الضخمة مغطاة بدرع مصنوع من قشور الأسماك، ومحاطا بحراسه من النحام الوردي وحوله مجموعة من البط ذوي المنقار الأزرق، وأبو ملعقة، وطائر أبو قردان، والبلشون الرمادي، وحيوانات أخرى. وتلك السمكة الصغيرة ذهبت بجانب أمها وأبوها، اللذان كانا خائفين عليها. فرفع الملك يده عاليًا، ودوى صوته في أرجاء الفناء: "أمسكوا بالمتسللة!". فتم الامساك بايلاف وبدأوا في التحقيق معها ووضعوها في سجن لا تصله أشعة الشمس

سجن مظلم وضيق ومصنوع من الأصداف البحرية العملاقة الملتصقة بالنباتات والأعشاب الموجودة في أعماق السبخة. كانت ايلاف خائفة وحزينة. قالت لهم "أنا بريئة، لم تكن لدي نية أن أضر السمكة الصغيرة. بالعكس، أنا كنت أريد أن أساعدها".

قال الملك بصوت قوي "كيف كنت تريدين أن تساعديها؟ ومن انت؟ و لماذا أتيت إلى السبخة؟ " قالت له" أنا فتاة، كنت من البشر ولكن عندما أردت أن أكتشف السبخة وما يوجد فيها من الداخل غرقت، وعندما غرقت، أصبحت حورية، ورأيت السمكة المسكينة مخنوقة بكيس بلاستيكي. لذا أردت أن أساعدها، لكنها خافت مني وهربت. وإن كنت لا تصدقني يا سيدي الملك أخرجني من هذا السجن لأعطيك دليل براءتي."

تلاشت ملامح الصرامة عن وجه الملك تدريجيًا. ثبت نظره على إيلاف، وكانت عيناه ممتلئتين ليس بالخداع، بل بالشجاعة والصدق. وأمر حراسه بإخراج إيلاف من الزنزانة. فخرجت إيلاف من السجن، وبدأت تقترب من السمكة الصغيرة ونزعت كيس البلاستيك من فمها. وعادت تلك السمكة تتنفس من جديد، وحضنت أمها وأبوها اللذان بكيا من الفرح.

حينها صدق الملك أن إيلاف على حق وأنها بريئة وقال لها "ما دمت بريئة ونيتك صافية فنحن سنقوم بتوسيمك ونجعلك حارسة سبخة السيجومي."

فرحت إيلاف وشعرت بالفخر، وقالت له "ان شاء الله أكون على قدر الأمانة".

أخرج الملك رسالة، حروفها من طين السبخة، وقال لإيلاف " صحيح! أنت لديك أمانة وهي هذه الوصية التي نريد منك أن تأخذيها لأهل الأرض". ايلاف لم تستطع كبح نفسها، وتملكها حب الاطلاع، ففتحت الوصية وبدأت بقراءتها.

من ملك سبخة السيجومي إلى سكان الأحياء المجاورة:

يومًا بعد يوم، شعبي يندثر ويموت بسبب النفايات التي تلقونها ليلًا ونهارًا، منذ سنوات، بلا كلل أو وعي. فلم نعد نرى طائر النحام الوردي كما في السابق، اختفت العديد من الكائنات التي كانت تشاركنا الحياة في هذا الموطن. النفايات البلاستيكية وغيرها من المخلفات غزت كل زاوية، وحولت السبخة إلى بيئة غير صالحة للعيش.

أسئلكم: هل يرضى أحد أن يعيش في منزل ملوث تنبعث منه الروائح الكريهة؟ بالطبع لا. الإنسان لا يستطيع أن يعيش في بيئة قذرة، فإن الكائنات الأخرى، ونحن منها، أيضا لا يمكنها البقاء في سبخة ملوثة. قلة الوعي والتقصير المستمر يهددان حياتنا جميعًا دون استثناء.

لذا، فإننا نناشد المواطنين، والسلطات البلدية، والمؤسسات المعنية كافة، بضرورة التحرك الفوري. إن عامل الوقت ليس في صالحنا، وكل يوم تأخير يؤدي إلى تفاقم الكارثة البيئية ويزيد من المخاطر الصحية والبيئية على الجميع.

إذا استمر التلوث بهذا الشكل، فإننا سنواجه نقطة اللاعودة. الطبيعة الأم بدأت تعاني، وإذا استمر الإهمال، فقد لا تسامحنا يومًا.

نهيب بكل من يملك حسًا بالمسؤولية والغيرة على البيئة، أن يساهم في تنظيف السبخة والحفاظ عليها، بالتعاون مع العائلات والجيران والبلدية والمجتمع المحلي. ما زال هناك أمل، وما زال في المجتمع أشخاص قادرون على إحداث التغيير.

فلنتحرك معًا، قبل فوات الأوان.

بعد أن قرأت ايلاف الرسالة، شعرت بالمسؤولية، وكانت مصممة على المساعدة بكل ما تستطيع، وأن تكون على قدر المسؤولية. ألبس الملك ايلاف تاجا من لؤلؤ. وقال لها :"الآن عودي إلى منزلك، فوالداك قلقان عليك".

خرجت إيلاف وركبت على ظهر النحام الوردي ذو الريش الوردي الناعم الممزوج بألوان دافئة من الأبيض والوردي وحلق بها إلى الشاطئ وأعادها إلى المكان الذي دخلت منه إلى السبخة. وفي أثناء طريق عودتها، ألقت إيلاف نظرة على السبخة من فوق، فرأت أنها كبيرة جدا، ليس كما كانت تتخيلها. وكان الماء فيها صافيا ولامعا لأن الشمس ساطعة فيها، وكانت تتخيل أنَ السبخة نظيفة وفيها العديد من الحيوانات ويحيط بها الخضار من كل جانب.

هكذا عادت إيلاف إلى هيئتها الطبيعية البشرية، ولبست محفظتها، كأن شيء لم يحدث وعادت لمنزلها في الوقت المناسب وروت لأمها وأبوها حكايتها التي تشبه الخيال.

وفي الغد، أخذت إيلاف الرسالة وذهبت إلى منطقة يطلق عليها أهل الحي تسمية "الشارة" حيث يجتمع فيها جميع السكان. وبدأت إيلاف تخاطب الناس بكل عزيمة ومسؤولية، فكانت نبرتها حادة وجادة، كأن من يخاطبهم شخص بالغ وليس تلك الفتاة الصغيرة، فقد شاهدت بأم عينيها المعاناة التي تعيشها كائنات السبخة. أوصت المتساكنين بأن لا يرموا فضلاتهم في السبخة، و طلبت من ممثلي البلدية أن يجدوا حلا للصرف الصحي الذي يصب في السبخة. كما حمّلت أيضا المسؤولية للجمعيات البيئية لتقوم بحملات توعية لمخاطر التلوث وأضراره على الكائنات التي تعيش في السبخة وأيضا على السكان الذين يعيشون بالقرب منها...دهش الناس من كلام إيلاف إلاّ أنّهم في نفس الوقت كانوا مقتنعين بكلامها فكان كلامها صفعة على وجوههم تنبههم لمراجعة أخطاءهم.

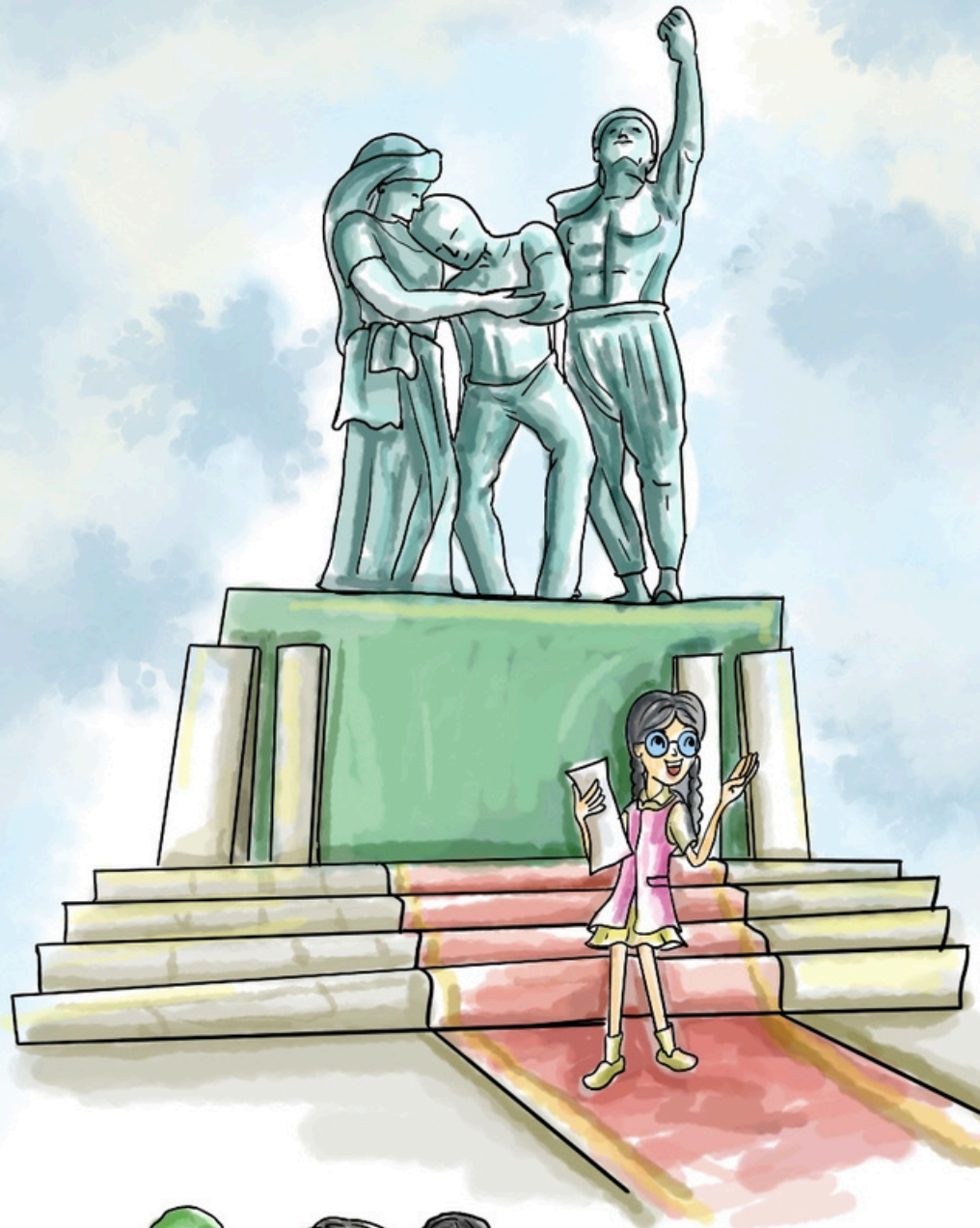

وفي الغد، اجتمع السكان من كل الأحياء: حي هلال، السيدة، سيدي حسين، السيجومي.... اجتمعوا لينظفوا السبخة من الأوساخ. فلم يتركوا فيها شيء من الأوساخ، مهما كان صغيرا. وقد سمع أعوان البلدية وأعيان البلاد بالحدث فجاؤوا لتقديم يد المساعدة في حملة التنظيف.
و بينما هم منهمكون في حملة التنظيف في أطراف السبخة، فإذا بهم يرون بلادا تظهر من وسط السبخة، مملكة بقصورها وفيها حيوانات تشبه الناس، يوجد فيها بط وطيور ولكنهم يتكلمون. ومن بينهم الملك، الذي وسم إيلاف. شكرها وشكر أهلها وزملائها وكل المتساكنين.

وقف الملك مع حاشيته أمام السكان وأخبرهم بأنَ السبخة هي مكسب لكل من أهل الأرض وأهل السبخة. إن بقيت على حالها القديمة فستتسبب بأوبئة وأمراض كثيرة للسكان. إذا لم يحافظوا على نظافتها فستتحول السبخة لنقمة عليهم بسبب الروائح والحشرات السامة القادرة على قتل الإنسان، مما ينجر عنها مضرَة كبيرة لكل الأحياء المحيطة بالسبخة. لذا طلب منهم الملك الالتزام بالمحافظة على تنظيف السبخة بشكل دوري لتبقى محمية طبيعية يتمتع بها السكان وأطفالهم وأيضا الحيوانات التي تعيش فيها، فهي متنفسهم الوحيد وكنزهم الثمين الذي يجب المحافظة عليه، وعليهم أن يدركوا قيمة ما يملكون.

وفي النهاية، قررت إيلاف أن تكتب القصة التي عاشتها، وأن تقدّمها لزملائها على شكل بحث بطريقة مختلفة ومبتكرة. وعندما روت قصتها أمام المعلمة والصف، صفق لها الجميع بحرارة، واختارها زملاؤها قدوة لهم، ليتعلموا منها كيف يحافظون على البيئة ومحيطهم، وخاصة سبخة السيجومي.

كرّمت المدرسة إيلاف على هذا العمل الرائع، وعلى روح القيادة والمسؤولية التي أظهرتها، وأصبح لديها الكثير من الأصدقاء الجدد.

ومنذ ذلك اليوم، أطلقوا عليها لقب "حارسة السبخة".

ولتشجيع باقي التلاميذ، قررت إدارة المدرسة إنشاء ركن خاص بعنوان "قصة نجاح"، ليشارك فيه التلاميذ قصصهم الملهمة، تمامًا كما فعلت إيلاف، ويكونوا مثالًا يُحتذى به في العطاء وحب البيئة.

وهنا انتهت قصتنا. وطابا طابا، وان شاء الله كل عام تجينا صابا.